رسالة مكاتبات عبد الملك بن مروان مع الحسن البصري في الانشاء

الدكتور عبدالامير دكسن

على سبيل التقديم :
تحقيق الدكتور عبد الامير عبد دكسن / قسم التاريخ / كلية الاداب •

من المسائل المهمة التي شغلت المسلمين منذ الفترة المبكرة وخلال جميع مراحل تاريخهم مسألة القدر ، وهل ان ما يصيب الانسان من خير أو شر هو مقدر عليه من الله أم انه من صنعه هو • ونتيجة لذلك فقد ظهرت مدرستان فكريتان تقول الاول ان القدر خيره وشره من الله تعالى وتلك هي المدرسة القدرية • أما الثانية فترى ان الأنسان قادر خالق لافعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الآخرة والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لانه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا » [1] وهذه هي مدرسة أهل الاعتزال •

ورغم ان الصلة بين المدرستين صلة وثيقة من حيث الايديولوجية فان المدرسة الاولى سبقت الثانية في ظهورها •

---

(١) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ص ٤٥ •

وقد كان للمدرسة الاولى دور بارز في العصر الاموي ليس على الصعيد الفكري فحسب بل على الصعيد السياسي كذلك • فقد تبنى الخلفاء الامويون وخاصة اولئك الذين شهدت فترات حكمهم اضطرابات كثيرة وحداثا سياسية هامة فكرة القدر وطبقوها في تفسير وتبرير كثير مما اتخذوه من اجراءات اتجاه الخصوم السياسيين في عهدهم •

ويعتبر عصر الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) - ذلك العصر المزدحم بالاحداث الجسام - العصر الذي شهدت تطبيق فكرة القدر في السياسة العامة بصورة واضحة • فعندما قتل عبدالملك عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق (٧٠هـ / ٦٨٩ م) وكان اصحابه ومؤيدوه يحدقون بقصر الخليفه أمر « برأس عمرو ان يطرح المبهم من اعلى القصر فطرح اليهم وطرحت الدنانير ، ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادى • ان امير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والامر النافذ ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه ان يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ، ويغني فقيركم ، ويبلغكم الى اكمل ما يكون من العطاء والرزق ويبلغكم الى المئتين في الديوان ، فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا أمره واسكنوا الى عهده يسلم لكم دينكم ودنياكم •• فصاحوا نعم نعم سمعا وطاعة لأمير المؤمنين » [1] وهكذا فان قتل عمرو كان بقضاء سابق وامر نافذ •

ومن تحليل هذا النص تظهر حقيقتان على جانب كبير من الاهمية الاولى هي ان الخليفة (أي الدولة) كان يتبنى فكرة القدر ويستعملها في المجال السياسي كوسيلة لاسكان المعارضة ضده • وقد اوضح ذلك

---

(١) الامامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة) ج ٢ ص ٩ ، ٢٧-٢٨ •

ابن قتيبة [٢] عندما اشار كيف ان عطاء بن يسار ومعبد الجهني سئلا الحسن البصري قائلين • « ياأبا سعيد ان هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الاموال ويفعلون ويقولون انما تجري اعمالنا على قدر الله • فقال كذب اعداء الله » أما الحقيقة المهمة الثانية فهي أن هناك عدد لا يستهان به من الناس ـ على الاقل في دمشق عاصمة الخلافة الاموية ـ كانوا يؤمنون بفكرة القدر • وقد اكدت هاتان الحقيقتان الرسائل المتبادلة بين الخليفة عبدالملك بن مروان والحسن بن أبي الحسن البصري المتعلقة بفكرة القدر ، والتي نحن بصدد نشرها •

ولسنا هنا في مجال اثبات صحة نسبة هذه الرسالة الى الحسن لان هذا الامر قد اثبتته (Julian Obermann) [٣] ، كما ان محتويات الرسالة وتحليلها كان قد تصدى لها كل من (H. Ritter) [٤] و (Michael Schwarz) [٥] • والحقيقة ان هناك نسختان من هذا المخطوط الاولى في مكتبة Köprülü تحمل رقم 1589 والثانية في مكتبة Aya Sofya وتحمل رقم 3988

وقد نشر النسخة الاولى المستشرق الالماني (H. Ritter) [٦] في عام ١٩٣٣ • وتختلف النسخة الاولى عن الثانية في كونها اكثر تفصيلا ولذلك فقد اعتبر (H. Ritter) النسخة الثانية ملخصا للاولى وان

(3) Political Theology in Early Islam, PP. 132, JOAS, 1933.
(4) Studien Zur Geschichte der Islamischen Frömmigkeit, pp. 1-83, DI, XXI, 1933.
(5) The Letter of Al-Hassan Al-Basri, pp. 15-30, Oriens, XX, 1967.
(6) Op. Cit.. PP. 67-82.

كلا النسختان مصدرها واحدا • ولهذا فقد اصبح نشر النسخة الثانيـــة من هذا المخطوط امرا ضروريا طالما ان هذه الرسالة تمثل اقدم وثيقـة تبحث بصورة منظمة في مسألة القدر •

وصف المخطـــوط :

ونسخة المخطوط الذي نحن بصدد نشره الآن والذي عنوانـــه رسالة مكاتبات عبد الملك بن مروان مع الحسن البصري في الانشاء يتألف من ثلاث عشرة ورقـــة مكتوبة بالخط النسخي الجيـــد ، والاوراق مجدولة في كل صفحة تسعة أسطر • وطول كل صفحة ١٧ر٨ سم أمـا عرضها فهو ١٣ر٢ سم أما طول كتابة فهو ١٤ر٤ سم وعرضها ٧ر٤ سم •

وعلى الورقة الاولى وقفية بالخط الفارسي المهمل نصها :

« وقد وقف هذه النسخة الجلية سلطاننا الاعظم والخاقان المعظم مالك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان بن السلطان الغازي محمود خان وقفا صحيحا شرعيا حرره الفقير احمد شيخ زادة المفتش باوقاف الحرمين الشريفين غفر لهما » • وتحتها خاتم احمد شيخ زادة • وفوق الوقفية خاتم مدور بالخط النسخي القديم نقشه« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » وتحت النقش طغراء •

اما ناسخ المخطوط فهو شمس الدين القدسي في سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م• وفيما يلي نص المخطوط •

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢ أ) نسخة كتاب عبدالملك بن مروان الى الحسن بن ابي الحسن البصري ، رحمة الله عليهما .

من عبدالملك امير المؤمنين الى الحسن بن ابي الحسن ، سلام عليك . اما بعد ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، واسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله ، وبعد فقد بلغ امير المؤمنين [٢ ب] عنك قول في وصف القدر لم يبلغه مثله عن احد ممن مضى ، ولا نعلم احدا تكلم به ممن ادركنا من الصحابة رضي الله عنهم كالذي بلغ امير المؤمنين عنك . وقد كان امير المؤمنين يعلم منك صلاحا في حالك ، وفضلا في دينك ، ودراية للفقه وطلبا له ، وحرصا عليه . ثم انكر امير المؤمنين هذا القول من قولك ، فاكتب الى امير المؤمنين بمذهبك والذي [٣ أ] به تأخذا عن احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم عن رأي رأيته ، أم عن امر يعرف تصديقه في القرآن ؟ فانا لم نسمع في هذا الكلام مجادلا ، ولا ناطقا قبلك . فحصل لامير المؤمنين رأيك في ذلك واوضحه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب اليه الحسن البصري رحمة الله عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

[٣ ب] لعبدالملك امير المؤمنين ، من الحسن بن ابي الحسن البصري . سلام الله عليك يا امير المؤمنين ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد اصلح الله امير المؤمنين ، وجعله من الولاة الذين يعملون بطاعة الله ، ويتبعون رسوله ، ويسارعون في اتباع ما امرهم به ،

فأن امير المؤمنين اصلحه الله اصبح في قليل من كثير مضوا من اهل الخير ، منظور اليهم ، ومغفول عنهم ، ومقتدي باعمالهم [٤ أ] وقد ادركنا يا امير المؤمنين السلف الذين عملوا بامر الله ورووا حكمته ، واستنّوا بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانو لا ينكرون حقا ، ولا يحقون باطـــلا ، ولا يلحقون بالرب تبارك وتعالى ، الا ما الحق بنفسه ، ولا يحتجون الا بما احتج الله به على خلقه في كتابه • فان الله تبارك وتعالى يقول وقوله الحق : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق وما اريد [٤ ب] ان يطعمون » (٧) • فامرهم الله بعبادته التي لها خلقهم ، ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد • ولم يكن احد ممن مضى من السلف ينكر هـذا القول ، [ولا يحول] (٨) عنه • لأنهم كانوا على أمرٍ واحد متفقين ولم يأمروا بشيء منكر ، كمـــا قال الله تبارك وتعالى : [« قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل امر ربي بالقسط [٥ أ] واقيموا وجوهكم عند كـل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون » (٩) ، « [وينهي] (١٠) عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون (١١) »] (١٢) • فكتاب الله تعالى حياة عند كل موت ، ونور عند كل ظلمة ، وعلم عند كل جهل •

---

(٢) المعارف ص ٤٤١ •
(٧) سورة الذاريات ٥٦/٥١ •
(٨) في الاصل « يحاول » •
(٩) سورة الاعراف ٢٨/٧ ، ٢٩ •
(١٠) في الاصل « وكان نهيه » •
(١١) سورة النحل ٩٠/١٦ •
(١٢) في الاصل « قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله مالا تعلمون قل امر ربي بالقسط وكان نهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » •

فما ترك الله للعباد بعد الكتاب والرسول حجة • وقال عز وجل : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وان الله لسميع عليم » (١٣) • ففكر يا امير المؤمنين في قول الله تعالى : « [لمن] (١٤) شاء منكم ان [٥ ب] يتقدم أو يتأخر ، كل نفس بما كسبت رهينة » (١٥) • وذلك ان الله تعالى جعل فيهم من القدرة ما يتقدمون بها ويتأخرون ، وابتلاهم لينظر كيف يعملون وليبلو اخبارهم • فلو كان الامر كما يذهب اليه المخطئون لما كان اليهم ان يتقدموا ولا يتأخروا • ولما كان لمتقدم اجر فيما عمل ، ولا على متأخر لوم فيما لو يعمل ، لأن ذلك بزعمهم ليس منهم ، ولا اليهم ، ولكنه من عمل [٦ أ] ربهم • واذا لقال : [« ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (١٦) • « وما يضل به الا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون » (١٧)] (١٨) • فتدبر يا امير المؤمنين ذلك بفهم • فان الله عز وجل يقول : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هديهم الله واولئك هم اولوا الالباب » (١٩) • واسمع الى قول الله تعالى [٦ ب] حيث يقول : « ولو ان اهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم

---

(١٣) سورة الانفال ٨/٤٢ •
(١٤) في الاصل «فمن» •
(١٥) سورة المدثر ٧٤/٣٧ •
(١٦) سورة ابراهيم ١٤/٢٧ •
(١٧) سورة البقرة ٢/٢٦ •
(١٨) في الاصل : « ويضل الله الظالمين • وما يضل به الا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون » •
(١٩) سورة المزمر ٣٩/١٨ •

سيئاتهم ولا دخلناهم جنات النعيم ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم » [٢٠] وقال : « ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون » [٢١] . واعلم يا امير المؤمنين ان الله لم يجعل الامور [٧ أ] حتما على العباد ولكن قال : « ان فعلتم كذا فعلت بكم كذا وان فعلتم كذا فعلت بكم كذا . وانما يجازيهم بالاعمال . كما قال : « فزده عذابا ضعفا في النار » [٢٢] . ولكن الله قد بين لنا من قدم لهم ذلك ومن اضلهم فقال : « وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيل » [٢٣] . فالسادات والكبراء هم الذين قدموا لهم الكفر واضلوهم السبيل بعد ان كانوا عليهـــا ، لأن الله [٧ ب] تعالى يقـــول " انّا [هديناه] [٢٤] السبيل اما شاكرا واما كفورا » [٢٥] . اما يشكر هدايتنا له السبيل وانعامنا عليه ، واما ان يكفر . « ومن [٢٦] شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم » [٢٧] . وكذلك قال الله عز وجل : " واضل فرعون قومه وما هدى » [٢٨] . فقل يا امير المؤمنين كما قال الله : فرعون الذي اضل قومه . ولا تخالف الله في قوله ولا تجعل مـن الله ما رضي لنفسه فانه قال : « ان علينا [٨ أ] للهدى وان لنـــا للآخرة

---

(٢٠) سورة المائدة ٥/٦٥ .
(٢١) سورة الاعراف ٧/٩٦ .
(٢٢) سورة ص ٦١/٣٨ .
(٢٣) سورة الاحزاب ٣٣/٦٧ .
(٢٤) في الاصل « وهديناه » .
(٢٥) سورة الانسان ٧٦/٣ .
(٢٦) في الاصل « فمن » .
(٢٧) في الاصل « حميد » . سورة النحل ١٧/٤٠ .
(٢٨) في الاصل (وما هدى) . سورة طه ٢٠/٧٩ .

والاولى » [٢٩] . فالهدى من الله والضلال من العباد ثم فكر يا امير المؤمنين في قول الله عز وجل « وما اضلنا الا المجرمون » [٣٠] . وقوله : « واضلهم السامري [٣١] » . وقوله : « ان الشيطان ينزع بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » [٣٢] . وقوله تعالى : « انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين » [٣٣] . يعني ما انتم بناجين من عذابة ان اتاكم ولا بممتنعين منه ولا ينفعكم نصحي حينئذ ان اردت [٨ ب] ان انصح لكم عند حلول العذاب بكم وقد علم نوح عليه السلام ان العذاب اذا نزل بهم وعاينوه لم ينفعهم الايمان عند ذلك . وقد بين الله تعالى في الامم التي اهلكها بقوله : « فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عبادة وخسر هنالك الكافرون [٣٤] . فهذه سنة الله لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب واما قوله : « ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم [٩ أ] واليه ترجعون [٣٥] . انما يعني بالغي في هذا الموضع العذاب . وهو قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهرات فسوف يلقون غيا » [٣٦] . اى عذابا اليما . وقد تقول العرب لقي فلان اليوم غيا ، اى ضربه الأمير ضربا شديدا ، أو عذبه عذابا اليما . ومما يجاد لون فيه قول الله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما [٩ ب] يصعد في السماء كذلك

---

(٢٩) سورة الليل ٩٢/١٢ .
(٣٠) سورة الشعراء ٣٦/٩٩ .
(٣١) سورة طه ٢٠/٨٥ .
(٣٢) سورة الاسراء ١٧/٥٣ .
(٣٣) سورة هود ١١/٣٣ .
(٣٤) سورة غافر ٤٠/٥٨ .
(٣٥) سورة هود ١١/٣٤ .
(٣٦) سورة مريم ١٩/٥٩ .

يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » [٣٧] • فتأولوا بجهلهم على ان الله تعالى خص قوما بشرح الصدور يعني القلوب بغير كفر كان منهم ولا فسق ولا ضلال • ولا لهؤلاء سبيل الى ما كلفهم من الطاعة وهم مخلدون في النار طول الابد • وليس ذلك يا امير المؤمنين كما ذهب اليه الجاهلون المخطئون • ربنا ارحم [١٠ أ] واعدل واكرم ان يفعل ذلك بعباده • كيف وهو يقول : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت » [٣٨] • وانما خلق الجن والانس لعبادته فجعل لهم اسماعا وابصارا وافئدة يطيقون بها اضعاف ما كلفهم الله من عبادته ، فمن اطاع منهم فيما امر به فقد شرح الله صدره للاسلام ثوابا منه بطاعته في العاجلة من الدنيا • ويخفف به [١٠ ب] عليه اعمال البر ، ويثقل به الكفر عليه والفسوق والعصيان فان كان في حاله (تلك) [٣٩] مطيعا لجميع ما امر به ونهي عنه ، وكذلك حكم الله في كل من بلغ من الطاعة مبلغه من شريف أو وضيع ، ومن ترك ما امره الله به من الطاعة وتمادى في كفره وضلالة في عاجل الدنيا وهو مع ذلك مطيق للانابة والتوبة جعل الله صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء عقوبة منه له بكفره وضلالته في عاجل الدنيا [١١ أ] • والتوبة ما مور بها ومدعو اليها ، كذلك حكم الله عز وجل فيمن بلغ من الكفر والفسوق مبلغه • وانما ذكر الله يا امير المؤمنين الشرح والضيق في كتابه رحمة منه لعبادة وترغيبا منه لهم في الاعمال التي يستوجبون بها في حكمته تضيق الصدور • ولم يذكر الله لهم ذلك ليقطع رجاءهم ولا ليؤيسهم من رحمته [١١ ب] (وفضله) [٤٠] • ولا

---

(٣٧) سورة الانعام ٦/١٢٥ •
(٣٨) سورة البقرة ٢/٢٨٦ •
(٣٩) في الاصل « تيك » •
(٤٠) في الاصل « وفصله » •

ليقطعهم عن عفوه ومغفرته وكرمه اذا هم صلحوا • وقد بين الله عز وجل في كتابه فقال تعالى : « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »[٤١] • وقال[٤٢] يذكر ان السلف الماضين من صحابة النبي عليه السلام كانوا على كلامه لا ينكرون منه شيئا ولا يجاد لون فيه لانهم كانوا على امر واحد متفق [١٢ أ] متسق لا ينكرون منه حقا ولا يحقون منـــه باطلا ولا يلحقون بالرب الا ما الحق بنفسه ولا يحتجون الا بما احتج الله به على خلقه • وذكر لامير المؤمنين انه انما احدث الكلام فيه حين احدث الناس النكرة له • فلما احدث المحدثون الكلام في دينهم ذكرت من كتاب الله خلافـــا لما قالوا واحدثوا • وذكر من ذلك ما لا ينكره امير المؤمنين بل يعرفـــه ويعرف تصديقه في [١٢ ب] كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ففي كتاب الحسن بعد كتاب الله الشفاء والبرهان • وقد [بعثت][٤٣] اليك يا امير المؤمنين نسخة كتاب الحسن لتنظر فيه وتفهمه ، ليزيدك الله هدى الى هداك ، وعلما الى علمك فافهمه وتدبره ، واعمل فيـــه برأيك وعقلك لنفسك وللمسلمين ، ولا تدخل عليه فيه شبهة فانه واضح لمن تدبره وعقله ، وقبل عدل الله فيه • واعلم انه لم يبق ممن اخذ عن السلف الماضي [١٣ أ] من اصحاب رسول الله صى الله عليه وسلم احد هو اعلم بالله تعالى ، وافقه في دين الله ، واقرأ لكتاب الله من الحسن ، مع صلاح حاله وثقته في دينه، وامانته واهتمامه بامور المسلمين • فاكرمه كرامة ترجو بها ثواب الله تعالـى في الآخرة والاولى •

---

(٤١) سورة المائدة ١٦/٥ •

(٤٢) ينتهي هنا كلام الحسن البصري ويبدأ كلام مرسل رسالة الحسن الى الخليفة ولعله احد الولاة •

(٤٣) في الاصل « بعث » •

آخر الرسالة : ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم • ما شاء الله كان ، وما لم [يشأ] (٤٤) لم يكن ، واستغفره واتوب اليه من كل ما لا يرضاه [١٣ ب] من قول وعمل • والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين •

كتبها العبد الفقير الراجي عفو ربه القدير شمس الدين القدسي في العشر الاول من ربيع الآخر سنة اثنين وثمانين وثمانمائة هجرية نبوية مصطفوية •

---

(٤٤) في الاصل « يشاء » •